فكاهات

كيف يصير الجماد انساناً [1]

وقعت اليّ القصة الآتية وهي روايةٌ واقعية نشرها المسيو لويس ارنولد في احدى المجلات الادبية وقد حضر كثيراً من وقائعها بنفسهِ كما يُعلم من سياقتها فأحببت ان اطرف بها قرآء الضيآء لما فيها من الغرابة وما تشير اليهِ من ان اعظم المستحيلات في الدنيا اذا تولاها الانسان بالبصيرة الحاذقة وزاولها بالحكمة والصبر الطويل لا تلبث ان تعنو لهُ وتصبح من الممكنات . وهناك امرٌ آخر لعلهُ اهمّ مما ذكر وهو الدلالة على ما لاخواننا الغربيين من العناية بالانسان والعمل لتخفيف وطأة البؤس عنهُ وايصال اسباب السعادة اليهِ ولو حالت الطبيعة دونهُ باوعر عقبات الشقآء وامنع اسوار اليأس عسى ان يكون ذلك محل اعتبار لأناسٍ منا يستلذّون الدعة والنعيم واخوهم الانسان مطروح بين انياب البؤس ومخالب العنآء . قال

في صبيحة اليوم الاول من شهر مارس سنة ١٨٩٥ وصل الى دير الراهبات المعروفات براهبات الحكمة ثلاثة اشخاص مسافرين وكانوا قد قطعوا ذلك الليل مشياً على القدم لانهم ضلوا طريق الدير فلم يبلغوهُ الا في الصباح . وكان هؤلآء الثلاثة من ناحية اللوار السفلى احدهم رجلٌ صانع براميل ومعهُ نسيبةٌ لهُ وهما يسوقان امامهما ابنةً تبلغ نحو عشر سنوات من العمر الا ان هيئتها كانت اشبه بمخلوقٍ وحشي وكانت دائماً قلقة مضطربة لكنها لا تتكلم ولا تسمع لان الطبيعة قد حرمتها اهمّ حواسها منذ المولد وقذفتها صمآء بكمآء عميآء تاركةً لها حسًّا واحداً وهو اللمس لتشعر بواسطتهِ بوجود مخلوقات سواها على وجه هذه البسيطة

وان اباها السيئ البخت بحث كثيراً عن ملجأ يجعل فيهِ هذه المخلوقة الشقية

---

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم الياس افندي الغضبان

ليخفف بعض الشيء من شقآئها فكان عبثًا يتعب لان ملاجئ الصمّ البكم امتنعت من قبولها لانها عمياء وملاجئ العميان ردّته خائبًا لانها صمآء بكمآء . واخيرًا رقت لحالهِ اسرةٌ من الاغنيآء فقبلتها في منزلها على سبيل التجربة لكنها لم تلبث الاّ قليلاً في دارهم الرحبة حتى رُدّت الى ابيها بحجة انها مختلة الشعور . فاشير عليهِ بان يرسلها الى ملجأ المعتوهين في مدينة نانت الا انهُ لحدة مزاجها خشي ان تزداد حالتها سوءًا فلم يشأ ارسالها . وبينما هو يفكر في امرها بلغهُ ان ابنةً لها من العمر ثلاث سنوات ونصف يقال لها مرتا اوبرخت اصيبت بالعمى والصمم والبكم لرعب اصابها في حرب سنة ١٨٧٠ التي اتقد سعيرها بين فرنسا والمانيا وان ابويها وضعاها في دير لرناي حيث عامتها واحدة من الراهبات يقال لها سنت مدول التكلم والقرآءة فما عتم ان نهض لساعتهِ هو وخالة الفتاة وتوجها بها قاصدين الدير المذكور حتى بلغاهُ في ذلك الصباح

ولما دخلا الدير علما ان الراهبة سنت مدول قد توفيت في العام الماضي لكنها تركت تلميذةً لها تسمى سنت مرغريت خلفتها في تعليم الفتاة المذكورة على نفس الطريقة التي كانت تجري عليها معلمتها وبنآءً عليهِ قبلت رئيسة الدير ابنة صانع البراميل المذكور وكانت تسمى ماري هورتين وسلمتها الى عهدة سنت مرغريت

الا انهُ كان يوجد فرق عظيم بين ماري هذه والفتاة الاخرى فان ماري كانت فاقدة اهمّ حواسها منذ المولد وتلك فقدتها اذ كان عمرها ثلاث سنوات ونصفًا كما تقدم ولا يخفى ما هناك من التباين ومع كل هذا فان سنت مرغريت قبلت تلميذتها وباشرت الاعتنآء بها

ولما استقرّت ماري في الدير وشعرت بمفارقة ابيها وخالتها ادركها من الوحشة ما اصبحت لهُ في حالةٍ يرثى لها فكانت دائمة القلق والاضطراب لا تذوق السكينة ولا تعرف الدعة وكانت ذات منظر مخيف ترمي بنفسها على الارض وتتقلب من جهة الى اخرى ولا تمل من الصياح واستمرت على هذه الحالة مدة شهرين كانت في اثنآئهما تراعى بكل اعتنآء وكانت الراهبات ينزهنها في حديقة الدير مع باقي

التلميذات الا انهُ في اثنآء ذلك كانت تأتيها نوبة عصبية فتصرعها وتلقيها على الارض خائرة مزبدة فكنّ في الحال يحملنها ويدخلنها مخدعها بكل احتراس وبالاجمال فان هذه الشقية كانت تقاسي عذاباً احرّ من الجمر وهو عذاب نفسها المسجونة في داخلها وهو اشد ألماً من عذاب الجسد

اما سنت مرغريت فمع كل هذا لم تحجم قطّ عن تعليم تلميذتها مهما كانت حالتها غريبة وكان لهذه التلميذة ولوع شديد بسكين صغير كان معها من يوم دخولها الدير فلما كانت في احد الايام اخذتهُ معلمتها من يدها فشقّ ذلك على الفتاة وظهر عليها الاغتمام فردتهُ اليها ثم انها امسكت كفيها وامرّت حرف الواحدة على الاخرى وهي اشارة السكين عند الصمّ البكم . وبعد ساعة عادت فأخذت السكين منها ثانيةً ولما لم تردّها اليها وضعت احدى كفيها فوق الاخرى مثلما فعلت معها معلمتها تشير الى طلب السكين فعند ما رأت منها معلمتها هذه الاشارة ردّت اليها السكين في الحال وهذه اول خطوة خطتها هذه المسكينة اذ ادركت وجود نسبة بين الاشارات والمحسوسات

ومذ ذاك اخذت سنت مرغريت تتابع معها هذه الخطة وكانت قد علمت من خالتها انها تحب البيض كثيراً فأمرت بان تعطى في كل يوم بيضة مع الغدآء . ففي احد الايام بعد ما وضعت لها الخادمة البيضة في صحنها اتت معلمتها واخذتها منهُ ومدّت ماري يدها لتأخذ البيضة فلم تجدها فانقبضت واظهرت علامات الاستيآء فامسكت سنت مرغريت بيدها وعملت لها اشارة تدل على البيضة فكررت الاشارة فردتها اليها . وعلى هذا المنوال علمتها عدة اشارات تدل على اصناف المأكولات التي كانت تقدم لها. ثم انها بعد مدة من الزمن كانت تجلسها على المائدة ولا تجعل امامها شيئاً فكانت تطلب هي بالاشارات الطعام الذي تشتهيهِ وهكذا اجتمع لها اول معجم يمكن ان تأخذ منهُ ما تعبر بهِ عن بعض اغراضها اذ كانت لها اشاراتٌ تدل كلٌّ منها على معنى مخصوص

ولما لم يكن في الامكان الاستمرار في تعليمها على هذا الوجه وتحميل قوة

حافظتها لكل معنى اشارةً مخصوصة رأت معلمتها ان تبتدئ بتعليمها حروف الهجآء بالاشارات التي كانوا يعلمونها للصم البكم قبل اكتشاف الدلالة على الحروف برمز الشفاه لانها لما كانت فاقدة البصر لم يكن سبيل الى تعليمها الحروف بالرمز فاخذت تعلمها اشارة كل حرف بيديها. وبعد ما اتقنت معرفة الحروف جميعها ابتدأت تركب لها مثلاً كلمة سكين من اربع اشارات مختلفة عوض الاشارة الواحدة التي كانت تستعملها قبلاً للدلالة عليها وبهذه الطريقة الجديدة استطاعت ان تفهمها اي اسم ارادت وهي تشير الى كل ما تعرفهُ

ولم تقف سنت مرغريت عند هذا الحد بل احبت ان تفتح عينيها وتعلمها القرآءة فشرعت في تعليمها قرآءة الحروف على طريقة براي في تعليم العميان وهي ان تُرسم لهم الحروف ناتئة على الورق بحيث تُدرَك صورها باللمس وبينت لها المناسبة بين هذه الحروف والحروف الاشارية التي كانت قد تعلمتها فكان هذا مما سهل عليها تناول طريقة براي في أسرع ما يمكن وهكذا تعلمت كلام الصم البكم وقرآءة العميان ولم يتم هذا الا بعد ما بذلت سنت مرغريت اقصى مجهودها مع ما اظهرتهُ ماري من الذكآء والنباهة مما لم يكن ينتظر منها

وكانت ماري الى ذلك الوقت قد تعلمت عدّة امور الا انها لم تكن تميز الا الاشيآء المحسوسة فكان من اهتمام الراهبات بعد ذلك ان يعلمنها المدارك العقلية فبدأت معلمتها ترشدها الى معرفة الصفات والتمييز بينها. ففي بعض الايام ادنت منها تلميذتين من رصيفاتها الواحدة طويلة القامة والثانية قصيرتها ووقفتهما امام ماري وامرتها ان تضع يدها على رأسيهما وتلاحظ الفرق الحاصل بينهما وبمثل هذا التمرين جعلتها تميز بين الكبر والصغر. ثم ارتأت يوماً ان تجعلها تميز بين الغنى والفقر فانتهزت فرصة دخول بعض المارين الى الدير واختصت منهم واحدة من الزائرات كانت مرتدية بالملابس الفاخرة وعليها الحلى الثمينة فاستأذنتها ان تأتي ماري وتلمس ثوبها وحليها ففعلت. ثم مرّ احد المتسولين وهو حامل جرابهُ على عاتقهِ وعليهِ اثوابٌ مقطعة فاخذت ماري وجعلتها تجسّ هذا المسكين فاظهرت الانقباض من ملمسهِ

خلافًا لما كان منها عند لمسها المرأة الموسرة واشارت الى انها لا تحب ان تكون فقيرة وعلى هذه الكيفية فرقت بين الغنى والفقر

ومن مضحك ما اتفق لها انها لما رأت معلمتها ان تكشف لها الغطآء عن حالة الشيخوخة اتت بعجوز صمآء بكمآء في الثامنة والثمانين من العمر وامرت ماري ان تلمس وجهها المتغضن وتضع يدها على ظهرها المنحني وتقابل بينها و بين وجهها الاملس وقامتها المستوية كالصعدة . و بعد ما تحققت ذلك قالت لها معلمتها انها ستضحي يومًا ما مثل هذه فيتثنى جلد وجهها ويحدودب ظهرها وتحتاج الى ان تمشي على العصا . فلما فهمت الفتاة ذلك اظهرت اشد النفور والاباء وقالت لا لا اني لا اريد ان اصير مثل هذه ولكن احب ان ابقى كما انا وقالت انها متى بلغت سن الشيخوخة ستجتهد بأن تنصب قامتها ولا تنحني. فأخذت سنت مرغريت تقنعها بانها هي ايضًا و باقي الراهبات سيضحين كذلك ولما كانت ماري تود معلمتها جدًّا لم تكره اخيرًا ان يكون حظها مثل حظها ومن ذلك الحين ابتدأت تعلمها بعض الادبيات الضرورية

واخيرًا رأت سنت مرغريت انهُ من اللازم ان تكشف لها عن حالة الموت فاغتنمت فرصة وفاة احدى الراهبات التي كانت تتولى ادارة المطبخ وكانت ماري مولعة بحبها واخذت تحدثها عن موتها بقدر ما استطاعت ايصالهُ الى فهمها وقالت لها انها نامت ولن تفيق من نومتها فيما بعد ولن تعود الى ما كانت عليهِ من تدبير المطبخ ابدًا . ثم ادنتها من جثتها وامرتها ان تجسها فلما وضعت يدها عليها وشعرت ببرودة جسمها الهامد اقشعرّ جلدها وظهرت عليها علائم الدهش والاستغراب . واذ ذاك ذكرت لها معلمتها انها هي ايضًا سيصيبها مثل ما اصاب تلك الراهبة فوقع ذلك على ماري اعظم مما وقع عليها امر الشيخوخة واظهرت اشدّ النفار والانقباض فأخذت سنت مرغريت تتلطف في تسكين جأشها وما ثار في نفسها من عوامل الهلع ولكي تخفف عنها اشجانها شرعت تبين لها أنها هي ايضًا ستموت وانها تتلقى هذا الفكر بنفس راضية فلم تجد الفتاة بدًّا من التسليم لانها لم تكن تشك فيما تقولهُ لها معلمتها . ثم انهُ بعد مدة اخترمت المنية راهبة اخرى فصنعت معها معلمتها كما صنعت

في المرة الاولى واذ ذاك علمت ان الموت لم يكن خاصاً بتلك الراهبة وانهُ سيتناول كل واحدة من الراهبات في نوبتها

اما سنت مرغريت فلم تشأ ان تقف ماري عند هذا الحد ولا تدرك من الموت الا ظواهرهُ بل انها احبت ان تعلمها بوجود النفس . ففي ذات يوم ورد على ماري كتاب من والدها ففرحت بهِ فرحاً عظيماً وقبلتهُ مراراً فأخذت مرغريت تسألها هل تحب والدها وهل تحب خالتها واختها الصغيرة فكانت تجيبها كل مرة انها تحبهم كثيراً . فقالت سنت مرغريت وبماذا تحبينهم هل تحبينهم بيديكِ . لا بدون شك وكذلك لا تحبينهم برجليكِ ولكن شيئاً داخل صدركِ هو الذي يحبهم وهو غير الجسد ويسمونهُ النفس. وعند الموت تفترق النفس عن الجسد وهكذا لما ماتت تلك الراهبة التي لمستِ جثتها الباردة فان نفسها التي كانت تحبكِ انتقلت الى مكان آخر وهي تحيا دائماً ولا تزال تحبكِ . وعلى هذا الاسلوب استطاعت ان تولد في ذهن الفتاة معرفة الاشياء الغير الهيولية ولم يبقَ الا ان تنوّر قلبها بمعرفة العزة الالهية

وكانت سنت مرغريت قد اطلعتها على عدة اشياء مما يجري حولها فكانت مرةً تأخذ بيدها وتدخلها مخبز الدير وتفهمها كيفية العجن والخبز وتارةً تأخذها الى معمل النجار فتجعلها تلمس الاخشاب والادوات التي يصنعها وطوراً تقودها الى مواضع البنائين وتضع يدها على الحجارة والجدران التي يبنونها وتشرح لها كل صنف من المصنوعات وكيفية صنعهِ على قدر ما تستطيع ايصالهُ الى ذهنها

وان ماري كانت في احد الايام الباردة في حديقة الدير فكانت تحب كثيراً ان تتدفأ بحرارة الشمس وتمدّ يديها نحوها كأنها تحاول امساكها واحياناً كانت تحاول التسلق على الشجر لتدنو منها . ورأتها معلمتها كذلك فقالت لها هل تعلمين من صنع الشمس وهل تظنين انهُ النجار . قالت لا ولكن الخباز لانها كانت تشعر بالحرارة عينها عند ما كانت تدنو من الفرن . فقالت لها مرغريت كلا ان الخباز لا يقدر ان يصنع الشمس بل الذي ابدعها هو اكبر من الخباز وهو اكبر من رئيسة الدير واعظم من المطران الذي زار ذاك اليوم الدير . وهو اقدر واعلم من جميع

المخلوقات وليس لهُ جسد ولكنهُ مثل النفس وهو يعرفكِ ويراكِ ويحبكِ كما يعرف ويرى ويحب جميع الناس واسمهُ الله . وهكذا بذكر درجات الاشخاص الذين تعرفهم ماري استطاعت معلمتها ان تبلغها الى اعلى درجة من هذا السلم وهي درجة العلي بارئ الخليقة

و بعد ذلك ابتدأت تقص عليها سيرة خلقة العالم ووصف الكواكب والقمر مما ليس في طاقتها ان تبصرهُ في هذه الدنيا ولا تشعر بوجودهِ و بالتدريج تعلمت حوادث التاريخ المقدس وكانت ترتاح اليها وتعجب بها اشدّ الاعجاب كما يحدث عادةً لجميع الاولاد

وان سنت مرغريت حرصاً على بقآء الخطة التي جرت عليها في تعليم هذه الابنة التي انتابها الدهر باعظم رزاياهُ دونت كيفية تعليمها في سجل الدير لتبقى محفوظة. غير ان الامر ليس متوقفاً على عرفان الخطة المتبعة ولكن ذلك يقتضي من الارادة والصبر ما لا يقدّر بوصف . وكانت سنت مرغريت تستعين بتلميذة من تلميذات الدير الصم البكم فكانت تساعدها في تعليم ماري الدروس التي كانت تعطيها اياها

وكان كل من نظر الى هذه الفتاة السيئة البخت تتفطر احشآؤهُ حزناً واسفاً ولا سيما اذ يراها ابنةً في سن الخامسة عشرة على جانب عظيم من الجمال ذات قوام رشيق ووجه وسيم وعينين نجلاوين الا انها فاقدة اهمّ حواسها فهي بالحقيقة حالة تدمي الفؤاد

واستمرّت ماري على تعاطي دروسها وكانت معلمتها ما عدا التعليم المسيحي والتاريخ المقدس اللذين كانت تقرأهما قد شرعت في تدريسها صرف اللغة ونحوها وبواسطة خرائط جغرافية كبيرة مصورة بالرسوم الناتئة على اصطلاح براي كانت تعلمها الجغرافية فكانت ترتاح اليها جدًّا . وعند ما ينتهي وقت مدرستها كانت تأخذ بيدها وتأتي بها معمل التلميذات الصم البكم وكنَّ يشتغلنَ بعمل المصنوعات اليدوية التي تدهش النواظر فكانت تتعلم هناك صنعة حياكة الجوارب وفي اثنآء العمل كانت تتحدث مع رصيفاتها بتوقيعها الكلمات على انامليهنَّ ويقول راوي هذه

القصة انهُ رأى من شغل يديها شالاً وعدة جوارب

قال وقد رأيت في احدى زوايا ذلك المعمل منظراً عجباً فاني رأيت هناك الصديقة الاولى لماريه وهي مرتا تلميذة سنت مدول التي ذكرت انها توفيت قبل دخول ماري الدير بسنة وكانت مباشرة في اعداد الجائزة التي كان يراد اهداؤها لماري في تلك السنة . والى جانبها عجوزٌ شمطاء الشعر صماء بكماء تقرأ بعينيها في انجيل صغير باللغة الفرنسوية ثم بواسطة الحروف الاشارية كانت توقع كل جملة تقرأها على يدي مرتا وهذه بعد ان تكرر الجملة على يدي العجوز حذراً من الغلط تعود فترسم الجملة نفسها رسماً ناتئاً بحسب طريقة براي على كتابٍ ذي صفحات خالية وهو الكتاب الذي كانت تريد ان تهديهُ لماري . فلا جرم ان ذلك ضربٌ من الاملاء الذي لم يسبق لهُ مثيل في الدنيا فالمملية صماء بكماء والكاتبة صماء بكماء عمياء والمُهدَى لها الكتاب هي ايضاً صماء بكماء عمياء (ويا عجبا كم وكم من عندنا من الناس الكاملي الحواس وهم لا يدرون من القراءة والكتابة امراً)

ومن غريب ما يرى من المشاهد منظر هاتين الصديقتين اي مرتا وماري حين تشرعان في الحديث فانك تراهما واقفتين احداهما بازاء الاخرى وانامليهما تنقبض وتنفتح وتتبادل التوقيع بأسرع من لمعان البرق ووجوههما تنطلق بالبشر مرة بعد اخرى تترجم عن حركات انفسهما وما يخامرها من الوجدان المتبادل . وكانت ماري تحادث بأناملها اكثر رصيفاتها من الصمّ البكم الا انها لم يكن يحلو لها الحديث الامع صديقتها مرتا ومعلمتها سنت مرغريت. وكانت سنت مرغريت في بدء تعليمها لا تلقنها الا الجدّ لكنها اخيراً ابتدأت تمازحها لانها رأتها تضحك وتنشرح من المزاح وعلى هذا المنوال نقلت سنت مرغريت هذه المخلوقة الغريبة من عالم الجماد الى عالم الانسان . انتهى